الناشر العبقري

ولد في ٢٧ يناير سنة ١٧٠٦ بمدينة «بوسطن». وكان الإبن الخامس عشر من سبعة عشر ولدًا رزق بهم أبوه «يوشيا فرانكلين» العامل في صناعة الشمع والصابون، فكان طبيعيًا حين بلغ العاشرة من عمره أن إكتفى والده بتعليمه القراءة والكتابة وألحقه بأحد المصانع ليتدرب فيه على عمل يعيش منه. ولكن الصبي بنيامين كان أكثر طموحًا وأملًا في المستقبل فلم يرض لنفسه أن يكون نجارًا أو حدادًا أو بناء أو صانع أحذية كما أراد له والده، وإقترحت أمه إعداده ليكون قسيسًا، فرضى بذلك حينًا، ثم عزف عن دراسة الدين.

عامل في مطبعة

وحاول أبوه أن يدربه على العمل معه في صنع الشمع، ولكن هذه المحاولة لم تنجح أيضًا، وسرعان ما شعر الوالد بأن إبنه الصغير يحاول الهرب من المنزل كما صنع إخوته من قبل، فأعفاه من العمل معه، وأجابه إلى رغبته في تعلم فن الطباعة وكان إبنه الأكبر «جيمس» قد سبق إلى تعلم هذا الفن الجديد وأنشأ لنفسه مطبعة صغيرة، فألحقه بالعمل فيها، وتعهد «جيمس» بأن يجعل من أخيه طابعًا ممتازًا في خلال تسع سنين!

وكان هذا العمل الجديد شاقًا مضنيًا للصبي الصغير، وزاد في شقته أن «جيمس» كان حاد الطبع، شديد الوطأة، لا يكتفي بتدريبه على صف

الحروف وإدارة آلة الطباعة، وتفهيمه دقائق الصناعة وأسرارها، بل يكلفه فوق ذلك كله كثيرًا من الأعمال المرهقة داخل المطبعة وخارجها، ولا يتورع عن ضربه بقسوة إذا لاحظ عليه أي إهمال أو ملال. على أن «بنيامين»، لم يبد برغم ذلك تأففًا أو تبرمًا، بل مضى قدمًا في الطريق التي إختارها لنفسه، ولم يكتف بما لقى من ترقية جزاء مثابرته ودقته وخبرته، فصار يقضي أمسياته في المطالعة للتزود بما يحتاج إليه من مختلف العلوم والفنون والآداب. وساعده ذكاؤه وطموحه فلم يمض إلا قليل حتى أحس في نفسه قدرة على الكتابة في الموضوعات التي كانت تنشر في الصحف الثلاث التي كانت تصدر في أمريكا حينذاك، وفي مقدمتها صحيفة «بريد إنجلترا» التي يصدرها ويشرف على تحريرها أخوه. على أنه خشى ألا يشجعه أخوه على المضي في هذا الطريق خشية أن يلهيه عن الطباعة، فكتب أول مقال له ولم يوقع عليه، ثم وضعه خفية في مكتب أخيه، فلما قرأه هذا أعجب به ونشره في صحيفته وهو يحسب أنه لكاتب كبير!

رحلات لطلب الرزق

ولم تقف همة الطابع الشاب عند حد إجادة الكتابة النثرية، فحاول قرض الشعر أيضًا، وأصاب في ذلك نجاحًا غير قليل. ثم إتفق أن علم أبوه بإتجاه إلى الكتابة فسارع إليه غاضبًا ناصحًا له بالعدول عن هذا الإتجاه. وفي الوقت نفسه أخذ أخوه يزداد شدة في معاملته له، فلم يجد بدًا من النجاة بنفسه من العناء الذي يقاسيه، وغادر المطبعة في ذات ليلة إلى غير رجعة، إذ ترك المدينة كلها وتوجه إلى «نيويورك»، فقد رفضت مطبعتها

الوحيدة إلحاقه بعمل فيها فواصل رحلته قاصدًا إلى «فيلادلفيا»..وكان عليه أن يقطع أكثر الطريق إليها ماشيًا، إذ فرغ ما كان معه من مال قليل. وهكذا لقى من المشقة والعناء ما لا طاقة به لصبي في مثل سنه، وقبض عليه غير مرة في الطريق بإعتباره خادمًا هاربًا، وإجتمعت عليه آلام التعب والجوع وخيبة الرجاء..ثم أتيح له أخيرًا أن يجد سفينة صغيرة متجهة إلى فيلادلفيا، ورضى بحارتها بإصطحابه معهم في مقابل قيامه بالعمل فيها بقية الرحلة!

جوع ٠٠ وجمال

وفي فيلادلفيا، كانت الصعاب والعقبات التي لقيها الصبي الهارب أدهى وأمر، وقد بقي يذكر يومه الأول فيها حتى آخر حياته. فقد دخلها وحيدًا شريدًا مهلهل الثياب، لا يكاد يقوى على المشي من فرط التعب والجوع، ولم يكن يملك أكثر من ثلاثة بنسات، فإشترى بها ثلاثة أرغفة من أول خباز صادفه، ثم سار على غير هدى في طرقات المدينة وهو يقضم في شراهة أحد الأرغفة الثلاثة بينما الرغيفان الآخران تحت إبطه..وهناك على باب أحد المنازل التي مر عليها يومذاك وقعت عيناه الزائغتان على فتاة حسناء وقفت تبتسم وهي في دهشة من منظره، فلم يزد على أن إبتسم بدوره، ثم إنطلق في سبيله مواصلًا التغلب على جوعه بقضم الرغيف٠٠٠ وبعد سبع سنين على ذلك المشهد الطريف..شاءت الأقدار إلا أن تجمع بين ذلك الفتى الشريد وبين تلك الفتاة الحسناء «ديبورا رير» فإذا هما زوجان متحابان سعيدان، يتبادلان التقدير والإخلاص.

يعمل ويتعلم

إتخذ بنيامين فرانكلين شعارًا لنفسه منذ وصل إلى فيلادلفيا، هو أن يعمل ويتعلم..وكثيرًا ما آثر أن يبيت طاويًا، ليشتري كتابًا جديدًا يقرؤه بدلًا من طعام العشاء!

وما بلغ العشرين من عمره حتى بدأ الخطوة الأولى في سبيل نجاحه، فصار صاحب «مجلة فيلادلفيا» وإستطاع أن يجعل لها مكانًا بارزًا بين الصحف التي كانت تصدر بأمريكا في ذلك الحين، بما أدخل على تحريرها من تحسينات ومبتكرات. وسرعان ما إشتد إقبال القراء عليها، لما وجدوا فيها من مقالات بليغة تعالج الموضوعات التي تتصل بحياتهم، وتنشر من الأنباء ما يثير إهتمامهم، بجانب ما إبتدعته من نشر الإعلانات المختلفة مما عد حدثًا جديدًا.

وشجع هذا صاحب المجلة الشاب، فأخذ يستغل خبرته بالطباعة والصحافة في إخراج نشرات وكراسات مطبوعة كانت النواة الأولى للكتب المطبوعة فيما بعد..وفي تلك النشرات والكراسات كان عشاق الحرية من الأمريكيين في عصر الإستعمار يجدون ما يشفي غليلهم ويشبع رغبتهم ويقوي آمالهم من المقالات الجامعة المعالجة لمختلف الشئون السياسية والإجتماعية..وكانوا إلى ذلك يحصلون على هذه النشرات بثمن مقبول.

وما كاد يطمئن إلى نجاح مشروعاته في دار الطبع والصحافة والنشر، حتى ترك الإشراف الإداري عليها لشريك يثق به، وإكتفى هو بالإدارة

الفنية، لكي يقوم بجانب عمله فيها بإشباع رغبته في البحث والدرس وإبتكار ما ينفع المواطنين.

نواة المكتبات العامة

وإستطاع أن يعلم نفسه اللغة الفرنسية ثم الإيطالية والأسبانية واللاتينية..وقرأ روائع الأدب العالمي، وألم بجميع العلوم المعروفة في عصره، كما أتقن العزف على الكمنجة وغيرها من الآلات الوترية، وبرع في لعبة الشطرنج..وصار من أساطين المحدثين.

وبدأ مبتكراته العامة لخدمة مواطنيه، فأنشأ مع بعض زملائه ناديًا يتبادلون فيه الكتب والآراء، إسمه «نادي الجنتو» أو «الفوطة البيضاء». وكان المبدأ الذي وضعه لتبادل الكتب بين الأعضاء نواة لإنشاء المكتبات العامة التي كانت ولا تزال من أهم الوسائل التثقيف الشعوب!

نظام حديث للبوليس

وأنشأ بعد ذلك إتحادًا أهليًا لمكافحة الحريق، وشركة للتأمين ضده، وإقترح على المسئولين عن حفظ الأمن نظامًا جديدًا كان نواة النظام الحديث للبوليس. ثم أنشأ جمعية لدراسة العلوم، ودعا إلى إنشاء مدرسة عالية هي التي صارت فيما بعد «جامعة بنسلفانيا». كما كانت له اليد الطولى في إنشاء المستشفيات العامة لأول مرة في العالم.

وفي سنة ١٧٣٧ تولى فرانكلين إدارة البريد في فيلادلفيا، ثم عين

مديرًا عامًا للبريد في جميع المستعمرات التي كانت تتألف منها أمريكا، فنقل هذا المرفق الهام من الحالة البدائية التي كان عليها إلى العمل طبقًا لنظام دقيق جعله أسرع وأنفع، وفي الوقت نفسه إبتدع فكرة طوابع البريد، ثم نفذها فغطى إيرادها جميع نفقات البريد!

ويعد فرانكلين في أوائل رواد البحث العلمي في الزراعة والصناعة، وقد نجح بالوسائل العلمية التي إستحدثها في إصلاح قطعة كان يملكها من الأرض البور فصارت تنتج أجود الحاصلات، ووضع بحثًا عن حياة النحل ضمنه كثيرًا من الملاحظات الدقيقة والبيانات الوافية، وإستطاع أن يستنبط الكهرباء بوسيلة علمية بسيطة لم تزد على طائرة حريرية وحبل من قنب ومفتاح من حديد.

وكان طبيعيًا أن تتجه همة فرانكلين إلى ميدان الإصلاح السياسي، وإليه يعزى الفضل الأول في وضع أول خطة مشتركة لتوحيد صفوف الأمريكيين وضمهم في إتحاد عام، وحينما إشتد الخلاف بينهم وبين إنجلترا حول رغبتهم في التخلص من إستعمارها، لم يجدوا من هو أصلح منه للتحدث بإسمهم والدفاع عن مطالبهم، فأوفدوه إلى إنجلترا لهذا الغرض، حيث مكث فيها عشر سنين، واصل خلالها العمل لإنجاز مهمته، ثم عاد إلى فيلادلفيا، ليشترك مع قومه في الجهاد إستخلاصها بالحجج والبراهين، وعلى أثر عودته عين عضوًا في المؤتمر الوطني الثاني، وأسندت إليه مهمة المعاونة على تنظيم الجيش والبحرية وتدبير المال اللازم لبدء الجهاد. وكان يومئذ قد بلغ التاسعة والستين من عمره، لكنه تقبل هذه المهمة الشاقة

بإرتياح، وأبدى في سبيل إنجازها همة عالية يحسده عليها أقوى الشبان، وكان له أكبر الفضل في حمل جماعة الكويكر على الإكتتاب في الجهاد!

ولا شك في أن الأعباء التي ألقيت على كاهله في تلك السن المتقدمة والظروف العصيبة قد خفت كثيرًا بعد أن عين «جورج وشنطون» صديقة الحميم قائدًا للجيش، وكان هذا يصغره بستة وعشرين عامًا، وكل منهما مؤمن بصاحبه، ويضع كل ثقته فيه.

وحينما ألفت لجنة إعداد الوثيقة الخاصة بإعلان الإستقلال، أختير فرانكلين لعضويتها، وكان له نصيب كبير في تحرير هذه الوثيقة التاريخية الخطيرة، ووقع عليها معه: توماس جيفرسون، وجون آدامز، وروجر شيرمان، وروبرت لبفنجستون. ثم عرضت على نواب الأمة فوقعوا عليها جميعًا، بعد أن ألهب فرانكلين حماستهم بقوله لهم:

– إسمعوا أيها السادة..يجب أن يتعلق بعضنا ببعض حتى لا يعلق كل منا على حدة في حبال المشنقة !